رسائل الجاحظ .. دراسة لغوية تداولية[1]

د. عبد العزيز البديوي

موضوع الدراسة:

من خلال عنوان هذه الدراسة "**رسائل الجاحظ .. دراسة لغوية تداولية**" يتضح أنها أمام محددين رئيسين، الأول منهما هو "رسائل الجاحظ"، وهو يُعيِّن الحقل التطبيقي الذي تقوم عليه الدراسة، وهو يتمثل في الرسائل التي كتبها الجاحظ في موضوعات مختلفة. أما المحدد الثاني فهو "دراسة لغوية تداولية"، وهو الإطار النظري الذي تقوم عليه الدراسة؛ حيث تنتمي إلى مجال الدراسات التداولية، وقُيد الدرس التداولي بانتمائه إلى الحقل اللغوي للاحتراز من الجوانب غير اللغوية المتعلقة بالتداولية، كالجوانب الفلسفية، وغيرها.

ونظرًا لاتساع المفاهيم والنظريات والاتجاهات التداولية فإن الدراسة قد عمدت إلى مجموعة منها، واعتمدت عليها في بنائها، ومن هذه المفاهيم: الإشاريات، والأفعال الكلامية؛ حيث اعتمدت على ثلاثة منها هي: الإخباريات، والتعبيريات، والتوجيهيات، كما اعتمدت الدراسة على بعض المفاهيم الحجاجية، باعتبار الحِجاج نمطًا من أنماط الاستعمال اللغوي الذي هو مجال التداولية، ومن هذه المفاهيم: السلالم الحجاجية، والسلطة الحجاجية.

مادة الدراسة:

رسائل الجاحظ التي جمعها وحققها الأستاذ عبد السلام هارون في أربعة مجلدات، وقد اشتمل الجزء الأول على عشر رسائل، واشتمل الجزء الثاني على سبع رسائل، واشتمل الجزء الثالث على عشر رسائل، في حين اشتمل الجزء الرابع على تسع عشرة رسالة، وبذلك يكون عدد الرسائل ستًا وأربعين رسالة تقوم عليها الدراسة.

وتعتمد الدراسة على الطبعة الثانية للمجلدين الأول والثاني، وعلى الطبعة الأولى للمجلدين الثالث والرابع، وقد نُشرت المجلدات الأربعة سنة ١٩٧٩م.

وتجدر الإشارة إلى أنه قد عمل على تحقيق رسائل الجاحظ مجموعة من المحققين العرب والمستشرقين، إلا أن أكبر سلسلة وأدقها هي التي حققها الأستاذ عبد السلام هارون؛ حيث اعتمد على الطبعات السابقة التي حققها العرب والمستشرقون بالإضافة إلى المخطوطات التي حصل عليها. كما قام

---

(١) نُوقشت هذه الرسالة المُقدَّمة من الباحث: عبد العزيز السيد عبد العزيز البديوي، المدرس المساعد بقسم اللغة العربية، بكلية الألسن، جامعة عين شمس، لنيل درجة الدكتوراه، يوم ٢٥/ ٦/ ٢٠١٨م، وقد تكونت لجنة الحكم والمناقشة من: أ. د. عبد الحكيم محمد راضي (مناقشًا)، وأ. د. محمد سليمان العبد (مناقشًا)، وأ. د. إيمان السعيد جلال (مشرفًا)، وأ. د. أحمد عبد العظيم محمد، وقد مُنح الباحث درجة الدكتوراه بتقدير "مرتبة الشرف الأولى مع التوصية بطبع الرسالة وتبادلها مع الجامعات".

أيضًا الدكتور علي أبو ملحم بنشرها معتمدًا على طبعة هارون وبعض الطبعات الأخرى مع إعادة الترتيب والتبويب لهذه الرسائل، وقد نشرها في ثلاثة مجلدات، جمع في الأول منها الرسائل السياسية، وفي الثاني الرسائل الأدبية، أما المجلد الثالث فقد جمع فيه الرسائل الكلامية، والدراسة تستعين بها في بعض الأحيان أيضًا؛ نظرًا لترتيبها ترتيبًا موضوعيًا.

أهداف الدراسة:

تستهدف دراسة "رسائل الجاحظ" لغويًا وفقًا للمنهج التداولي ما يلي:

١. الكشف عن الإشاريات الفنية والسياقية في رسائل الجاحظ.

٢. الكشف عن الأنماط المختلفة للأفعال الإخبارية والتعبيرية والتوجيهية من الأفعال الكلامية.

٣. الوقوف على أنماط السلالم الحجاجية وقيمتها في رسائل الجاحظ.

٤. رصد أشكال السلطة الحجاجية وطريقة توظيفها في رسائل الجاحظ.

منهج الدراسة وإجراءاتها:

تفيد الدراسة أساسًا من معطيات المنهج التداولي بشتى اتجاهاته ونظرياته ومفاهيمه وتطبيقاته المختلفة، وخاصة نظرية الإشاريات، التي تشتمل على الإشاريات الشخصية والإشاريات الزمنية والإشاريات المكانية، وغير ذلك من الأنماط المختلفة للنظرية الإشارية. كما تعتمد بشكل أساسي على نظرية الأفعال الكلامية، التي تشتمل على الأفعال الإخبارية والأفعال التعبيرية والأفعال التوجيهية والأفعال الإلزامية والأفعال الإعلانية. بالإضافة إلى الاستعانة بالنظرية الحجاجية باعتبارها مجالًا من مجالات تطبيق النظرية التداولية؛ حيث إن الشكل الحجاجي يعد نمطًا من أنماط الاستعمال اللغوي الذي هو مجال الدرس التداولي. وقد اعتمدت الدراسة على نظريتي السلالم الحجاجية والسلطة الحجاجية.

أقسام الدراسة:

تنقسم الدراسة بعد المقدمة إلى تمهيد وثلاثة فصول يتفرع من كلٍ منها مباحث، ثم خاتمة، وذلك على النحو التالي:

التمهيد: ويتناول ثلاثة محاور: **الأول: فن الرسائل: المفهوم والنشأة والتطور:** وفيها عرض لمفهوم الرسائل وتاريخها وتطورها عبر الزمن وأنواعها المختلفة. و**الثاني: رسائل الجاحظ مادة الدراسة:** وفيها عرض لموضوعات رسائل الجاحظ، وجهود العرب والمستشرقين المبذولة في جمعها، وقيمة هذه الرسائل الموضوعية والأسلوبية. و**الثالث: التداولية: المصطلح والمفهوم والنشأة والاتجاهات:** وفيها عرض للتنوع المصطلحي للتداولية الناتج عن حركة الترجمة وتعدد المفاهيم. كما تناولت مفهوم التداولية، وجهود العرب والغرب في الوقوف على هذه المفاهيم. كما وقفت على نشأة التداولية ومراحل تطورها بداية من الإرهاصات الفلسفية وانتهاءً بالتداولية اللسانية. ثم تناولت بعضًا من اتجاهات التداولية ونظرياتها،

كالإشاريات، والافتراض المسبق، والاستلزام الحواري، والسياق، والتداولية المدمجة، والتداولية العرفانية، والأفعال الكلامية، وغير ذلك.

الفصل الأول: الإشاريات في رسائل الجاحظ: وينقسم إلى ثلاثة مباحث، الأول منها: "مدخل نظري إلى الإشاريات"، يتناول مفهومها، وجذورها في التراث العربي، وعلاقتها باللفظ والتركيب، وكذلك علاقتها بالدلالة والتداول. والثاني: "الإشاريات والبناء الفني في رسائل الجاحظ"، ويتناول دور البناء الفني في تقديم الوظائف الإشارية المتعددة. أما الثالث: "الإشاريات والسياق في خطابات الجاحظ"، فيتناول الجوانب التي تتجلى فيها إشاريات الجاحظ الملازمة لخطاباته.

الفصل الثاني: الأفعال الكلامية في رسائل الجاحظ: وينقسم إلى ثلاثة مباحث، الأول منها: "الإخباريات في رسائل الجاحظ"، ويتناول الأفعال الإخبارية والغرض الإنجازي منها، وأنماطها في رسائل الجاحظ من إخباريات مثبتة، وإخباريات منفية، وإخباريات مؤكدة. والثاني: "التعبيريات في رسائل الجاحظ" يتناول الأفعال التعبيرية والغرض الإنجازي منها، وعلاقتها باللغة الانفعالية، وأنماطها في رسائل الجاحظ من تعبير عن الفخر أو المدح أو الإعجاب والتعجب، إلخ. أما المبحث الثالث: "التوجيهيات في رسائل الجاحظ" فيتناول التوجيهيات والغرض الإنجازي منها، وأنواعها، ومسوغات استعمالها، وأنماطها في رسائل الجاحظ من فعل الدعاء، وفعل الأمر، وفعل النهي، وفعل الاستفهام، إلخ.

الفصل الثالث: الحجاج في رسائل الجاحظ: وينقسم إلى ثلاثة مباحث، الأول منها: "الحجاج: مفهومه واتجاهاته"، وهو يعد مدخلًا نظريًا إلى النظرية الحجاجية؛ حيث يتناول مفهوم الحجاج عند العرب والغرب، كما يتناول اتجاهات الحجاج بالنظر إلى الخطاب، وبالنظر إلى قصد المخاطِب، وبالنظر إلى نوع الحجج وأنماطها وأشكالها، وبالنظر إلى الوسائل والتقنيات المستخدمة في الحجاج. والثاني: "السلالم الحجاجية في رسائل الجاحظ"، ويتناول مفهوم السلالم الحجاجية، ومستوياتها اللغوية، وقوانينها، وقيمتها، كما يتناول أنماطها وأشكالها في رسائل الجاحظ. أما الثالث: "حجج السلطة في رسائل الجاحظ" فيتناول مفهوم حجج السلطة، وأنواعها، وقيمتها الحجاجية، وأنماط حجج السلطة في رسائل الجاحظ من حجج السلطة الشخصية، وحجج السلطة النصية، وحجج السلطة المعنوية والقانونية.

هذا وتُخْتَتَمُ الدراسة بخاتمة تُعْرَضُ فيها أهم ما توصلت إليه من نتائج، ومنها:

١. صلاحية النظرية التداولية باتجاهاتها المختلفة، وخاصة الإشاريات والأفعال الكلامية، للتطبيق على اللغة العربية؛ نظرًا لاعتمادها على أصول عامة تشترك فيها اللغات المختلفة، وتتفق عليها العقول والثقافات المتباعدة والمتباينة.

٢. نجحت التداولية في الكشف عن سمات الجاحظ الشخصية وأسلوبه، وسمات بيئته الثقافية والاجتماعية، بالإضافة إلى الوقوف على طرقه في المخاطبة بأساليب إقناعية ناجحة.

٣. قدم البناء الفني لرسائل الجاحظ دورًا مهمًا في عملية الإشاريات؛ حيث قدم العنوان والاستهلال والخاتمة أنماط إشارية متنوعة.

٤. قدمت سياقات خطابات الجاحظ الدينية والسياسية والاجتماعية أنماطًا إشارية مختلفة، لها أهمية كبرى في كشف الحياة العامة في عصر الجاحظ.

٥. اعتمد الجاحظ بشكل واضح على ثلاثة أنماط من الأفعال الكلامية، هي: الأفعال الإخبارية، والأفعال التعبيرية، والأفعال التوجيهية. كما اتسمت الأفعال الكلامية عنده بالترابط المنطقي الواضح بين عناصرها الأربعة: فعل القول/ التلفظ، والفعل القضوي، والفعل الإنجازي، والفعل التأثيري.

٦. اعتمد الجاحظ على أنماط مختلفة من البنية الحجاجية، وأشكال متعددة من عناصر الحجاج من أجل تدعيم حججه، وإقناع المتلقي بالقضايا التي يطرحها.

٧. تشكل السلالم الحجاجية البنية الشائعة في استعمال الجاحظ في رسائله، وتراوحت بين السلمية اللفظية والسلمية المعنوية، وبين السلمية التصاعدية والمتوازية.

٨. اعتمد الجاحظ في حجج السلطة على عدة أنماط، هي: حجج السلطة الشخصية؛ حيث وظف شخصيات ذات بعد سلطوي في نفوس المتلقين مثل: عمر بن الخطاب ولقمان الحكيم وبلال الحبشي وسعيد بن جبير – رضي الله عنهم – وغيرهم، بالإضافة إلى سلطة الحكماء، وهي سلطة شخصية اعتبارية. وحجج السلطة النصية من نصوص دينية وأدبية؛ فقد استعان بسلطة النص القرآني، وسلطة النص النبوي، وسلطة النص الشعري. وحجج السلطة المعنوية والقانونية المتمثلة في سلطة المماثلة، وسلطة التجربة، وسلطة المقارنة/ المواجهة، وسلطة الحاجة.

هذا وقد استعانت الدراسة بالرسم الشجري في أثناء تحليل عدد من النصوص من رسائل الجاحظ؛ للكاشف عن الأنماط الإشارية والأفعال الكلامية والسلالم الحجاجية وأنواع حجج السلطة، وشكل هذه الأنماط من ناحية التركيب؛ وذلك حين الحاجة إلى التوضيح والبيان والتخلص من اللبس.

والله ولي التوفيق